Journal of Total Science
Volume (9), Issue (35), (March. 2025)
ISSN: 2518-5799

مـجلـة الـعـلـوم الشـامـلـة
المجلد (9)، العدد (35)، (مارس2025)
ردمد: 2518-5799

الكونية الكانطية وإشكالية تأسيس الحداثة الأخلاقية

سونية سليمان العزابي

المركز الليبي للبحوث الاقتصادية – العجيلات – ليبيا

So20237777@Gmail.com

Kantian Universality and The Problem of Grounding Moral Modernity

Sunyah Sulayman Alezabi

Libyan Econornic Research Center- ajaylat- Libya

تاريخ الاستلام:2025/01/22 –تاريخ المراجعة:2025/02/19– تاريخ القبول: 2025/02/28– تاريخ للنشر : 2025 /03/30

ملخص البحث:

تُظهر المقاربات الكانطية المختلفة أن مفهوم الكونية والحداثة عند إيمانويل كانط يتأسس على ثلاث ركائز رئيسية هي: الحرية، والدين، وقواعد الفعل الأخلاقي. ومن خلال ذلك يمكن اعتبار كانط من أبرز الفلاسفة الذين بلوروا فكرة الكونية العقلية ودافعوا عنها بصورة منهجية صارمة، حتى غدا من أكثر المفكرين تأسيسًا لمفهوم العقل الكوني في الفلسفة الحديثة.

ففي رؤيته للحداثة، خصوصًا كما تتجلى في مقالته عن التنوير، لا يجعل كانط من العقل مشروعًا محصورًا في ثقافة أو أمة معينة، بل يرفعه إلى مستوى المشروع الإنساني العام الذي يشمل البشرية جمعاء، بوصفها تنتمي إلى الأرض لا إلى هويات جغرافية أو ثقافية ضيقة. ومن ثم فإن الحداثة عنده تتجاوز الخصوصيات التاريخية لتؤسس أفقًا كونيًا مفتوحًا.

كما أن موقف كانط من التاريخ والتقاليد والانتماءات يميل إلى تقليص دورها التأسيسي، إذ لا يمنحها قيمة معيارية في بناء العقل أو الأخلاق، بل ينظر إليها بوصفها معطيات لا يمكن الاعتماد عليها لتأسيس الكونية. وانطلاقًا من ذلك، يراهن كانط على الإنسان بما هو كائن عاقل حر، وعلى قدرته على التشريع الذاتي، مؤكدًا أولوية الكونية على حساب الهويات الضيقة، والمدنية على حساب القوميات، والعقل بوصفه مرجعًا أعلى للقيم بدل المرجعيات اللاهوتية أو الميتافيزيقية.

وبهذا المعنى، ينتقل التفكير الكانطي من مركزية التاريخ وفلسفة التاريخ إلى أفق أكثر شمولًا يقوم على الجغرافيا الإنســـانية الكونية، ومن البناء الأنطولوجي التقليدي إلى منهج النقد والتحليل بوصفه أداة لفهم شروط المعرفة والأخلاق.

الكلمات المفتاحية: كانط، الكونية، الحداثة، القانون الأخلاقي.

ABSTRACT

The various Kantian approaches demonstrate that the concepts of universality and modernity in Immanuel Kant's philosophy are grounded in three main pillars: freedom, religion, and the principles of moral action. On this basis, Kant can be regarded as one of the most prominent philosophers who articulated the idea of rational universality and defended it in a rigorous systematic manner, to the extent that he became one of the key thinkers who established the notion of universal reason in modern philosophy.

In his conception of modernity, particularly as expressed in his essay on Enlightenment, Kant does not confine reason to a specific culture or nation; rather, he elevates it to the level of a universal human project encompassing all humanity, understood as belonging to the earth rather than to narrow geographical or cultural identities. Thus, modernity in his thought transcends historical particularities to establish an open universal horizon.

Kant's position toward history, traditions, and forms of belonging tends toward minimizing their foundational role, as he does not grant them normative value in constructing reason or morality. Instead, he regards them as contingent givens that cannot serve as a basis for universality. Accordingly, Kant places his trust in the human being as a free rational agent and in the capacity for self-legislation, affirming the priority of universality over narrow identities, civility over nationalism, and reason as the highest reference for values rather than theological or metaphysical authorities.

In this sense, Kantian thought shifts from the centrality of history and the philosophy of history toward a more comprehensive horizon based on universal human geography, and from traditional ontological foundations toward a critical and analytical method as a tool for understanding the conditions of knowledge and morality.

Keywords: Kant, universality, modernity, moral law.

توطئة:

يرتكز المشروع الفلسفي لدى إيمانويل كانط على الثقة في قدرة العقل الإنساني على تأسيس المعرفة الأخلاقية بصورة مستقلة، بعيدًا عن أي سلطة خارجية أو مرجعية مفروضة من خارج الذات العاقلة. ومن هذا المنطلق صاغ كانط مبدأه الأخلاقي الأشهر، المعروف بـ" الأمر القطعي"، بوصفه معيارًا كليًا للفعل الأخلاقي، يقوم على ضرورة أن يتصرف الإنسان وفق قاعدة يمكن أن يقبل بتحويلها إلى قانون عام يسري على جميع البشر دون استثناء.

وفي السياق ذاته، تُعد فلسفة التنوير إحدى الركائز الأساسية التي قام عليها الفكر الغربي الحديث، لما حملته من تحولات عميقة في الرؤية إلى الإنسان والعالم والمجتمع. فقد مثلت هذه الفلسفة تجاوزًا للأنماط التقليدية في التفكير، وانتقالًا من هيمنة المرجعيات الموروثة إلى الاحتكام إلى العقل النقدي، ومن التفسيرات الغيبية للواقع إلى فهمه في ضوء التجربة والعقل. كما أسهمت في ترسيخ النزعة الفردية التي جعلت من الحرية والاستقلال الذاتي قيمتين مركزيتين في بناء الحياة الإنسانية.

ومن هنا اكتسب القرن الثامن عشر صفة "عصر الأنوار"، باعتباره العصر الذي أُعليت فيه مكانة العقل بوصفه الأداة القادرة على توجيه الإنسان وصياغة مصيره. وقد ارتبطت بهذه المرحلة مفاهيم جديدة مثل الحرية والعدالة والسيادة والعقلانية، التي أصبحت تشكل الأساس النظري للمجتمعات الحديثة ومؤسساتها السياسية والقانونية.

وانطلاقًا من هذا التصور، نظر مفكرو التنوير إلى التقدم العقلي باعتباره الشرط الضروري للارتقاء الأخلاقي والاجتماعي، مؤمنين بأن انتشار المعرفة العقلانية بين جميع أفراد المجتمع من شأنه أن يدفع الإنسانية نحو مزيد من التقدم والتحرر. كما رأوا في فكرة القانون الطبيعي ضمانة أساسية لحماية الحقوق الفردية ومواجهة أشكال الاستبداد والتمييز الطبقي، في حين تأسست الأخلاق الحديثة على السعي إلى تحقيق الخير الإنساني استنادًا إلى مبادئ عقلية عامة.

وفي هذا الإطار، يرى سمير بلكفيف في كتابه " كانط فيلسوف الكونية" أن هذه المبادئ أسست لتحول تاريخي عميق أسهم في نشوء الإنسان الحديث، القائم على قيم الحرية والمساواة وسيادة القانون، والداعي إلى الفصل بين السلطات، ومناهضة البنى الإقطاعية

والامتيازات الأرستقراطية، فضلًا عن ترسيخ الإيمان بدور العلم والتقدم التقني في تطوير الحياة الإنسانية وتحقيق الرفاه الاجتماعي.

تساؤلات الدراسة:

تنطلق هذه الدراسة من مجموعة من التساؤلات المركزية، من أبرزها: ما المقصود بالكوني في فلسفة كانط؟ ولماذا يحضر مفهوم الكونية بقوة في مجالات الأخلاق والدين والسياسة داخل نسقه الفلسفي؟ وما المبررات التي دفعت كانط إلى التأكيد على الشمول والكلية في أحكامه الأخلاقية والسياسية؟ ثم من أين يستمد هذا الكوني مشروعيته ومرجعيته ضمن البناء العقلي والنقدي للفلسفة الكانطية؟

منهجية الدراسة:

اعتمدت الدراسة منهجاً تحليليًا نقدي بوصفه أداة منهجية مناسبة لفهم أبعاد الطرح الكوني في فلسفة كانط، سواء في تجلياته الأخلاقية أو الدينية أو السياسية.

ومن أجل تحقيق أهداف الدراسة، تم تقسيم البحث إلى عدد من المقاربات الأساسية التي تسعى إلى الكشف عن الأسس النظرية والفلسفية لمفهوم الكونية عند كانط.

أولًا: المقاربة الكونية

يحتل مفهوم القيمة الكونية في فلسفة إيمانويل كانط موقعًا محوريًا، سواء في بعدها الأخلاقي أو السياسي، إذ يُعد من القضايا المركزية التي شغلت فلسفة الأنوار وفلسفات التقدم في القرن الثامن عشر. وقد مثّل هذا التوجه تعبيرًا عن الانتصار المتنامي للعقل والمعقولية، كما يشير إلى ذلك محمد سبيلا.

وترتكز النظرية السياسية عند كانط على فكرة القيمة الذاتية للفرد، التي تتأسس ترانسندنتاليًا على الحرية؛ أي على قدرة الإنسان بوصفه ذاتًا عاقلة على سنّ القوانين الأخلاقية والالتزام بها. ومن هنا، فإن جميع الأفراد متساوون من حيث المبدأ، الأمر الذي يفرض على المؤسسات السياسية والقانونية أن تعمل على حماية هذه الحرية وصيانتها.

وفي ضوء هذا التصور، يصبح التشريع الأخلاقي الذاتي تشريعًا ذا طابع كوني، لأنه يستند إلى العقل بوصفه ملكة مشتركة بين البشر جميعًا، لا إلى المصالح الخاصة أو الظروف المتغيرة. لذلك لم يبنِ كانط دفاعه عن حقوق الإنسان على نظرية الحقوق الطبيعية بالمعنى التقليدي كما عند توما الأكويني، ولا على النزعة الفردية الليبرالية كما عند جون لوك، وإنما

أسس هذه الحقوق على الطبيعة العقلية للإنسان بوصفها عنصرًا ثابتًا وغير قابل للاختزال أو التحويل.

ومن هذا المنطلق، سعى كانط إلى تأسيس القانون والأخلاق باعتبارهما ضرورتين ملازمتين للوجود الإنساني، لأن حقوق الفرد تشمل كل ما يضمن له إمكانية العيش بحرية أخلاقية. لذلك فإن كل ما يتعارض مع هذه الحقوق يُعد، في المنظور الكانطي، فعلًا مناقضًا للأخلاق والعقل معًا. **(غنار سكيربك، نلز غليجي، 2012، ص 598.)**

إن مفهوم الحرية عند إيمانويل كانط يرتبط ارتباطًا وثيقًا بمفهوم التشريع الذاتي للفعل الأخلاقي؛ فالتزام الإنسان بالقانون الأخلاقي لا يصدر عن إكراه خارجي، بل ينبع من اختيار حر تمارسه الذات العاقلة بإرادتها الخاصة. ومن هنا تتجلى أهمية الفلسفة الكانطية بوصفها أحد أبرز التعبيرات عن الحداثة الفلسفية، الأمر الذي يفسر عودة الاهتمام بها في الفكر المعاصر، خاصة لدى تيارات «الكانطية الجديدة» التي سعت إلى إعادة قراءة مفاهيمها وتوسيعها أو حتى تجاوزها، بهدف بناء تصورات فلسفية جديدة.

وقد انصبّ اهتمام هذه الاتجاهات على البحث في الأسس الكونية للأخلاق الكانطية، من خلال تحليل مفاهيم الإرادة، والواجب، والقانون، والأوامر الأخلاقية، والمبادئ العقلية، بوصفها جميعًا مفاهيم ترتد إلى البعد العقلي القبلي. **(سمير بالكفيف، كانط فيلسوف الكونية، 2011، ص،112)** وهذا ما يمنح الأخلاق عند كانط مشروعيتها الكونية، لأن العقل، وإن كان ذاتيًا في منطلقه، يمتلك القدرة على الانفتاح نحو الكلي والإنساني العام، ومن ثم إضفاء الطابع الكوني على القيم الأخلاقية. ولذلك رفض كانط كل سلطة خارجية تُكره الإنسان على الفعل، معتبراً أن السلطة الوحيدة المشروعة هي سلطة الذات العاقلة، وهو ما يعبّر عن معنى الحرية الأخلاقية لديه؛ أي أن ما ينبغي على الإنسان فعله هو ذاته ما يستطيع أن يختاره بإرادته الحرة.

وفي هذا السياق، يمكن القول إن كانط استلهم كثيرًا من أفكار جان جاك روسو، خاصة فيما يتعلق بضرورة تأسيس الأخلاق على مبدأ الاحترام اللامشروط للإنسان. بل إن تأثره بروسو، في هذا الجانب، بدا أعمق من تأثره بـــ إسحاق نيوتن؛ إذ كان نيوتن سببًا في انبهاره بقيمة العلم وقوانينه الصارمة، بينما ساهم روسو في تحريره من هذا الانبهار المطلق، وجعله يعيد الاعتبار إلى الإنسان بوصفه غاية في ذاته لا مجرد موضوع للمعرفة. **(كيبيش عبد**

الرحمن، كانط وأطروحة الحالة الطبيعية " نقد واستلهام جان جاك روسو"، مجلد 14، العدد 1، 2023، ص 71)

وقد قاد هذا التصور كانط إلى الإقرار بقدرة الكائن البشري على التشريع لنفسه، فجعل من هذه القدرة الأساس الذي يقوم عليه مذهبه الأخلاقي، كما يتضح في كتاب نقد العقل العملي، حيث يميز بين الموجودات الطبيعية التي تخضع للقوانين بصورة آلية، وبين الكائنات العاقلة التي تمتلك إرادة وقوة فعل تستندان إلى تصور القانون والوعي به. ومن ثم اختزل كانط إشكالية الفعل الإنساني والحق في سؤال أخلاقي يرتبط بحرية الإرادة والتشريع الذاتي. **(كانط ، نقد العقل العملي، 1966، ص100).**

كما يظهر البعد النقدي في فلسفته الدينية من خلال تأسيس الدين على الأخلاق بدل الاقتصار على الطقوس والشعائر. فقد انتقد كانط الصورة التاريخية التقليدية للدين، مؤكدًا أن جوهره الحقيقي يكمن في قيمته الأخلاقية. غير أن هذا النقد لم يكن خارج إطار العقل، بل استمد مشروعيته من العقل الخالص ذاته، عبر التمييز بين «مملكة السببية» التي تخضع فيها الظواهر لقوانين الفهم والمعرفة اليقينية، و«مملكة الحرية» التي يتجاوز فيها العقل حدود التجربة نحو المجال الأخلاقي.

ومن هنا تصبح الأخلاق والدين معًا نتاجين للعقل الخالص في استعماله الجدلي، لا مجرد معطيين تجريبيين أو مؤسسات تاريخية. فالحرية تمثل الأساس الذي يقوم عليه كل من الدين والأخلاق، بوصفهما تعبيرين عن قدرة الإنسان على تجاوز الضرورة الطبيعية نحو عالم القيم. ولذلك فإن الأساس النظري للدين، عند كانط، لا يتمثل فقط في الاستعمال الأخلاقي للعقل، بل كذلك في حدوده الإبستمولوجية؛ إذ إن عجز العقل عن إدراك «الشيء في ذاته» يدفعه إلى إعادة تحديد مجال المعرفة وحدودها. ومن هنا جاءت مهمة نقد العقل المحض بوصفها محاولة لنقد المعرفة الإنسانية وتحديد إمكاناتها، تمهيدًا لتأسيس مجالات الأخلاق والدين على أساس عقلي نقدي جديد. إليها **(محمد المزوغي، كانط، الدين في حدود العقل أو التنوير الناقص، 2007، ص30)**

وهنا تؤكد الباحثة من أن المشروع الكانطي استطاع أن يدعم افكاره عن الأمر الأخلاقي المطلق، وأن يعرض الخطوط الرئيسية عن الأخلاق النقدية، ذلك أن فلسفة كانط الأخلاقية تقوم بالوظيفية ذاتها، التي تقوم بها نظريات القانون الطبيعي، من حيث اعتقادها بأن الإنسان الأخلاقي، هو ذلك الذي يفترض في تصرفه وسلوكه وجود نظام أخلاقي مطلق يخضع له

الجميع، ومن هنا كانت هذه الفلسفة من أهم المشاريع الأخلاقية في الفلسفة الحديثة، كون الفيلسوف يستنبط من أن الدين ضرورة أخلاقية من خلال الاصطدام بسؤال الغاية، أي ما هي الغاية النهائية من أفعالنا الأخلاقية ؟.

يقول كانط " من بين الامور التي يمكن تصورها في هذا العالم أو خارجه لا يوجد شيء يمكن عده خيرا على وجه الاطلاق، ودون قيد اللهم إلا شيء واحد هو الإرادة الخيرة " **(كانط، تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق، 1965، ص 37)** .

ففي كتاب الدين في حدود مجرد العقل نجد أن كانط لم يضع العقل في أطر دينية بل العكس، وضع الدين في أطر العقل وحده، وأقترح أن ينفتح الدين على العقل، والعقل على الدين بحيث نستطيع أن نعتبر أحدهما دائرة أوسع للأيمان ينطوي في ذاته على الأخر بوصفه دائرة أضيق من الاولي **(كانط، الدين في حدود العقل المجرد، 2012، ص 270)**

ثانيًا: مقاربة الدين بوصفه عاملًا من عوامل الحداثة

يؤكد إيمانويل كانط أن الدين لا يتمثل في كونه نسقًا من العقائد النظرية الجامدة، بل هو فعل أخلاقي باطني وعبادة روحية خالصة. ومن هذا المنطلق، لم يكن سؤال الدين في الفلسفة الكانطية سؤالًا عرضيًا أو هامشيًا، بل جاء بوصفه ضرورة فلسفية فرضها الواقع الأوروبي آنذاك، خاصة في ظل ما شهدته أوروبا من صراعات دينية وحروب مذهبية في فرنسا وإنجلترا. لذلك كانت معالجة كانط للمسألة الدينية امتدادًا طبيعيًا لمشروعه النقدي الذي تبلور في مؤلفاته الفلسفية الكبرى.

لقد منح كانط الشعور الأخلاقي منزلة أسمى من العقائد الشكلية والطقوس الخارجية، وسعى إلى تتبع تطور الوعي الديني والكشف عن العلاقة المتبادلة بين الدين والفلسفة؛ أي عن دور الدين في بناء التصور الفلسفي، ودور الفلسفة في إعادة تشكيل الفهم الديني. ولهذا نظر إلى الدين من زاوية العقل والأخلاق معًا، فعمل على فتح العقل على الدين، والدين على العقل، معتبرًا أن الحرية والخلود وفكرة الله هي موضوعات يقود إليها العقل العملي، حتى وإن عجز العقل النظري عن إقامة البرهان اليقيني عليها **(يوسف كرم، العقل والوجود، 2012، ص70)**

وكأن كانط يريد أن يؤكد أن الأخلاق تقود بالضرورة إلى الدين، بما أن الأخلاق نفسها تقوم على العقل، والدين بدوره ليس سوى تعبير عن فعل داخلي وأخلاقي خالص. ومن هنا فإن الأخلاق، عنده، مكتفية بذاتها ولا تحتاج إلى غاية خارجية تبررها، غير أن سؤال: " لماذا

نفعل الخير؟" يقود الإنســـان إلى مجال الغايات الكبرى، أي إلى الدين باعتباره النتيجة الضرورية للأخلاق. ولذلك تصبح الأخلاق هي الأساس الذي يقوم عليه الدين، لا العكس. وفي هذا الســـياق يذهب كانط إلى أن الأخلاق " تقود، على نحو لا مفر منه، إلى الدين"؛ لأنها تفتح أمام الإنســـان فكرة غاية أخلاقية كلية تتجاوز حدود الفرد نحو إرادة عليا تحقق الانسجام بين العدالة والسعادة **(كانط، الدين في حدود العقل المجرد، ص49)**.

إن هذا الفصل بين الأخلاق والدين التقليدي أسّس بصورة غير مباشرة للطرائق الأولى للفكر العلماني الحديث، كما مهّد لفكرة الدين الكوني القائم على القيم الإنسانية المشتركة، بعيدًا عن الانقســامات المذهبية والطائفية. فالدين الحقيقي، وفق الرؤية الكانطية، يتمثل في الممارســة الأخلاقية الحرة التي تقوم على احترام الإنسان لأخيه الإنسان والإحسان إليه، بصرف النظر عن انتمائه العقدي أو الطائفي.

ولهذا يقول كانط: «كل ما يظن الإنسان أنه ما يزال بإمكانه أن يفعله خارج السيرة الحسنة، من أجل أن يصبح مرضيًا عنه عند الله، ليس إلا وهمًا دينيًا وخدمة باطلة لله» **(كانط، الدين في حدود العقل المجرد، ص12)**. ويكشف هذا القول بوضوح عن سعيه إلى تأسيس الدين على الأخلاق، بحيث يصبح الدين وسيلة لتعميق الوعي الأخلاقي لدى الإنسان، لا مجرد التزام شكلي بالشعائر والطقوس.

ومن هنا رأى كانط أن الدين يعتمد أســـاسًـــا على النزعات الأخلاقية الكامنة في الطبيعة الإنسانية، وأن المبادئ الجوهرية للعقيدة الدينية ليست سوى افتراضات يقتضيها الشعور الأخلاقي. كما حاول أن يبرهن على وجود الله انطلاقًا من القوانين العقلية المســـتمدة من الأخلاق، لا عبر البراهين الميتافيزيقية التقليدية، وهو ما جعله يرفض البرهان الأنطولوجي وســائر البراهين التأملية والغائية التي قدّمها الفلاســفة لإثبات وجود الله **(جورج طرابيشـــي، معجم الفلاسفة، 1987، ص476)**.

لقد اعتبر كانط أن فكرة الله تمثل مثالًا للكمال المطلق الذي يتجاوز حدود الإدراك العقلي النظري، ولذلك انتقد محاولات الميتافيزيقا التقليدية في تقديم معرفة يقينية بشـــأنه. وقد عبّر عن ذلك في حديثه عن الميتافيزيقا بوصفها «هوّة لا يُسبر غورها»، كما ناقش حدود المعرفة الميتافيزيقية في أبحاثه المتعلقة باللاهوت الطبيعي، وخاصة في سياق السؤال الذي طرحته أكاديمية برلين ســـنة 1765م حول مدى يقين الحقائق الميتافيزيقية مقارنة بيقين الهندســـة **(فردريك كوبلستون، تاريخ الفلسفة، 2010م، ص272)**.

وعليه، فإن الدين عند كانط لا يقوم على العقيدة النظرية أو الطقوس الشكلية، بل على الفعل الأخلاقي الداخلي، الأمر الذي جعله يرفع من شـأن الشـعور الأخلاقي ويمنحه أولوية على مختلف المظاهر الدينية الخارجية.

وما يمكن قوله هنا أن هذا النص يعكس جوهر المشـروع النقدي عند إيمانويل كانط، القائم على إعادة تأسيس الدين ضمن حدود العقل والأخلاق. فكانط لا ينفي الدين، لكنه يعمل على تحريره من الطابع المذهبي والطقوسي، ليجعله متوافقًا مع مقتضيات العقل الحديث. ومن هنا يظهر الدين بوصفه امتدادًا للأخلاق لا سلطة فوقها.

وتتمثل الإشكالية الفلسفية الأساسية للنص في السؤال التالي: كيف يمكن تأسيس الدين على العقل الأخلاقي بدل العقيدة الميتافيزيقية؟ وقد جاءت إجابة كانط من خلال التمييز بين العقل النظري والعقل العملي؛ فالأول يعجز عن البرهنة على وجود الله أو الخلود، بينما يقود الثاني الإنسان إلى الإيمان بهذه المبادئ باعتبارها ضرورات أخلاقية.

كما يكشـف النص عن البعد الحداثي في الفلسـفة الكانطية، إذ سـاهم في بناء تصـور جديد للدين يقوم على الحرية الفردية والضـمير الأخلاقي، بدل الخضـوع للسـلطات الكنسـية أو الطائفية. ومن هنا يمكن اعتبار فلسـفة كانط إحدى اللبنات الفكرية التي مهّدت لظهور العلمانية الحديثة، لا بمعنى إلغاء الدين، وإنما بإعادة تحديد مجاله داخل الحياة الإنسانية.

ومن جهة أخرى، يظهر في النص تأثر كانط بفلسـفة التنوير التي جعلت من الإنسـان مركزًا للكون الأخلاقي، بحيث أصـبحت قيمة الإنسـان وكرامته أعلى من أي سـلطة دينية أو اجتماعية. ولذلك فإن الأخلاق الكانطية ذات طابع كوني، لأنها تسـتند إلى العقل بوصـفه ملكة مشتركة بين جميع البشر.

ومع ذلك، يمكن توجيه نقد إلى هذا التصـور، يتمثل في أن اختزال الدين في البعد الأخلاقي قد يؤدي إلى تهميش أبعاده الروحية والوجدانية والرمزية، كما أن الاعتماد المفرط على العقل قد يجعل التجربة الدينية تبدو تجربة تجريدية بعيدة عن الواقع التاريخي والاجتماعي للإنسان. ومع ذلك، يبقى المشـروع الكانطي محاولة فلسـفية عميقة للتوفيق بين الإيمان والعقل، وبين الدين والحداثة، ضمن رؤية تجعل الحرية والأخلاق أساس كل فعل إنساني.

ثالثًا: إقامة الحق الكوني بوصفه إشكالية أخلاقية وسياسية

يرى إيمانويل كانط أن إقامة الحق الكوني تمثل في جوهرها قضـية أخلاقية قبل أن تكون قضية سياسية أو قانونية، إذ تقوم الكونية عنده على شرط أساسي يتمثل في احترام الواجب

الأخلاقي وتقديسه، واعتبار السلام واجبًا أخلاقيًا عامًا. ومن هنا يميز كانط بين «السياسي الأخلاقي» الذي يجعل السياسة خاضعة لمقتضيات الأخلاق، و«الأخلاقي السياسي» الذي يتعامل مع السلام باعتباره مجرد مسألة قانونية أو مصلحية.

ويهدف المشروع الكانطي، في هذا السياق، إلى تجاوز التصور التقليدي للقانون نحو بناء مشروع أخلاقي كوني، يتأسس على مفهوم الواجب؛ أي ضرورة أداء الفعل بدافع احترام القانون الأخلاقي ذاته. فالقانون الأخلاقي عند كانط يقتضي أن يكون الفعل نابعًا من سيادة العقل على الأهواء والميول، ولذلك فإن القيمة الحقيقية للفعل الأخلاقي لا تكمن في نتائجه أو غاياته، بل في كونه فعلًا مطلقًا يصدر احترامًا للواجب وحده **(فريال حسن خليفة، الدين والسلام عند كانط، 2001، ص146.)**

ومن خلال هذا التصور، يبدو أن كانط كان يسعى إلى تأسيس نوع من «الدين المدني» أو المثالية السياسية التي تشكل امتدادًا لمثاليته الأخلاقية والترانسندنتالية. فالنزعة الكونية لديه تمثل الحافز نحو بناء سياسة كونية تتفرع عنها مفاهيم مثل: المجتمع الكوني، والتاريخ الكوني، والمواطنة الكوزموبوليتية. ولهذا اعتبر أن الكوني يمثل مرجعية فلسفية قادرة على حل النزاعات الأخلاقية والسياسية بين البشر.

وفي فلسفته السياسية، يؤكد كانط من جهة أولى أن العقل الحر والمستقل هو المصدر الحقيقي للحق السياسي، بينما تقوم «محكمة العقل» من جهة أخرى بإخضاع الأفكار والآراء السياسية للنقد والتمحيص وفق قواعد التفكير السليم. ولهذا يقول كانط إن الأخلاق «هي علم العمل بالمعنى الموضوعي للكلمة، من حيث اشتمالها على جملة من القوانين المطلقة التي ينبغي أن نعمل بمقتضاها» **(ول ديورانت، قصة الفلسفة، 1988، ص356)**

ويُقسِّم كانط القانون إلى قانون طبيعي يقوم على مبادئ قبلية عقلية، وقانون وضعي يصدر عن المشرّعين. كما يميز بين الحق الفطري الذي يوجد قبل التنظيم السياسي، والحق المكتسب الذي ينشأ داخل المجتمع المدني. ومن هنا تنشأ العلاقات القانونية إما داخل مجتمع طبيعي يقوم على حرية الأفراد، أو داخل مجتمع مدني تؤسس فيه الجماعة السياسية نظامها القانوني.

ويكشف هذا التصور عن أن الكونية عند كانط تمثل لحظة متقدمة من الوعي السياسي الحديث، حيث أعادت الحداثة النظر في مفاهيم الدولة، والسلطة، والقانون، وحقوق الإنسان، وصولًا إلى فكرة العيش المشترك داخل فضاء إنساني مفتوح يتجاوز الحدود الضيقة

للانتماءات التاريخية أو القومية. فالكونية عنده ليســـت مجرد حلم طوباوي، بل مبدأ عملي يحرّك الذات الإنسانية نحو بناء عالم أكثر عدلًا وسلامًا.

وفي هذا الإطار دافع كانط عن حقوق الإنســـان وعن فكرة الحكومة التمثيلية، متأثرًا تأثرًا واضحًا بـــ جان جاك روسو، خاصة فيما يتعلق بمسألة الإرادة العامة والطبيعة الاجتماعية للأخلاق. ومع ذلك، فقد رفض اللجوء إلى الثورة بوصـــفها وســـيلة مشـــروعة لتغيير النظام السياسي، إذ رأى أن إصلاح الدستور ينبغي أن يتم من داخل السلطة الحاكمة نفسها، لا من خلال تمرّد الشعب على الدولة **(كانط، مشروع للسلام الدائم، 1952، ص49)**.

- **القواعد الكانطية للتأسيس الكوني.**

أولًا: قاعدة التعميم

تُعد قاعدة التعميم الأســاس الذي يقوم عليه القانون الأخلاقي عند إيمانويل كانط، ويصـوغها كانط على النحو التالي: اعمل بحيث يمكن لقاعدة فعلك أن تصبح قانونًا كليًا عامًا **(تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق، ص190)**

وتعني هذه القاعدة أن الإنسـان لا ينبغي أن يجعل من نفسـه اسـتثناءً في التشـريع الأخلاقي، بل عليه أن يتصـــــرف وفق مبدأ يمكن تعميمه على جميع الناس. ومن هنا يقدّم كانط مثال الانتحار بوصـــفه فعلًا لا يمكن أن يصـــبح قانونًا كليًا للطبيعة؛ لأنه لو أصـــبح كذلك لفني البشر جميعًا. كما يضرب مثالًا آخر بإنسان يرفض مساعدة الآخرين، مع أنه قد يحتاج يومًا إلى مساعدتهم، ومن ثم لا يمكنه أن يريد لهذا السلوك أن يتحول إلى قانون عام.

وانطلاقًا من هذا التحليل، يؤكد كانط أن الفعل الأخلاقي الحقيقي يجب أن يكون صـــــالحًا للتعميم الكوني، دون اسـتثناءات قائمة على المصـلحة الفردية أو الظروف الخاصـة. غير أن هذا التصور تعرّض للنقد بسبب طابعه الصارم والمطلق، إذ يرى بعض الفلاسفة أن التجربة والظروف الواقعية تلعب دورًا أســاســيًا في تحديد القيمة الأخلاقية للفعل، وليس العقل المجرد وحده.

ثانيًا: قاعدة الغائية

يصـوغ كانط قاعدة الغائية في صـورة أمر أخلاقي ينص على: عامل الإنسـانية في شـخصـك وفي شـخص غيرك دائمًا كغاية لا كمجرد وسـيلة **(ألن وود، كانط فيلسـوف النقد، 2014، ص187)**

وتقوم هذه القاعدة على ضرورة احترام الإنسان لذاته وللآخرين، وعدم التعامل معهم كوسائل لتحقيق المصالح الخاصة. فالإنسان يمتلك قيمة مطلقة وكرامة ذاتية لا يمكن اختزالها في المنفعة أو الاستغلال. ولهذا يرفض كانط أفعالًا مثل الكذب أو استغلال الآخرين أو الامتناع عن مساعدتهم؛ لأنها تنتهك إنسانيتهم وتحولهم إلى أدوات.

وتنسجم هذه القاعدة مع قاعدة التعميم، لأن الكذب مثلًا لا يمكن تعميمه قانونًا أخلاقيًا، كما أنه يحط من قيمة الإنسان بوصفه غاية في ذاته. ولذلك فإن الفعل الأخلاقي الحق يقتضي معاملة الذات والآخرين باعتبارهم ذواتًا حرة وعاقلة، لا وسائل لتحقيق الرغبات والمصالح.

كما يرتبط هذا التصور بمفهوم الاستقلال الذاتي عند كانط، حيث يصبح الإنسان حرًا فقط عندما يخضع لإرادة العقل والواجب، لا للأهواء والميول العابرة **(كانط، تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق، ص11)**.

ثالثًا: قاعدة الحرية

تحتل الحرية موقعًا مركزيًا في فلسفة كانط، إذ اعتبرها الأساس الذي يقوم عليه العقل العملي والأخلاق معًا. ولهذا رأى أن الإنسان الحديث يتميز بإيمانه العميق بحريته، وبقدرته على التفكير بنفسه وإضفاء القيمة الأخلاقية على **أفعاله (علي المحمودي، فلسفة كانط السياسية، 2007، ص206)**

ويؤكد كانط أن الحرية ليست مجرد فكرة نظرية، بل حقيقة أخلاقية يعيشها الإنسان في تجربته العملية، حتى وإن عجز العقل النظري عن تفسيرها تفسيرًا نهائيًا. ويمكن صياغة هذا المبدأ على النحو التالي: اعمل بحيث تكون مشرّعًا لنفسك. فالإنسان لا يكون حرًا حقًا إلا إذا كان هو واضع القانون الذي يطيعه، أي عندما يخضع لواجب يشرّعه العقل لنفسه. ومن هنا تصبح طاعة الذات العاقلة أسمى درجات الحرية، لأن الفرد لا يخضع عندئذ لسلطة خارجية، بل لإرادته الأخلاقية الحرة.

وبهذا المعنى، فإن بناء دولة تقوم على قانون الواجب وتمتثل فيها الإرادات الحرة للقانون الأخلاقي يمثل الغاية القصوى للمشروع الكانطي. فالحرية لا تعني الانفلات من القانون، بل تعني الخضوع الطوعي لقانون يضعه العقل بنفسه. ولذلك يقول كانط: «أنت ملزم، ولذلك فأنت تستطيع»، أي إن الواجب الأخلاقي يفترض بالضرورة قدرة الإنسان على تحقيقه **(كانط ، الدين في حدود العقل المجرد، ص3)**.

حقيقة يعكس هذا النص البنية العميقة للفلسفة الأخلاقية والسياسية عند إيمانويل كانط، حيث تتأســـس الكونية على العقل والحرية والواجب. فالمشـــروع الكانطي لا يهدف فقط إلى بناء أخلاق فردية، بل يســـعى إلى تأســـيس نظام كوني يجعل الإنســـان غاية في ذاته، ويحول السياسة إلى امتداد للأخلاق.

وتتمثل الإشـكالية الأسـاسـية للنص في السـؤال الآتي: كيف يمكن تأسـيس نظام سـياسـي وأخلاقي كوني يقوم على الحرية والعقل دون السقوط في الاستبداد أو الفوضـى؟ وقد جاءت إجابة كانط من خلال ربط السياسـة بالأخلاق، وجعل القانون تعبيرًا عن الإرادة العقلية الحرة لا عن القوة أو المنفعة.

كما يكشـف النص عن الطابع الإنسـاني العميق للفلسـفة الكانطية، خاصـة في قاعدة الغائية التي جعلت من كرامة الإنسان مبدأ مطلقًا، وهو ما سيؤثر لاحقًا في فلسفات حقوق الإنسان والمواثيق الدولية الحديثة.

غير أن الفلسفة الكانطية تعرضت أيضًا لانتقادات متعددة، أهمها طابعها الصوري والمجرد، إذ إن قواعدها الأخلاقية تقوم على العقل الخالص دون مراعاة كافية للظروف الاجتماعية والتاريخية. كما أن رفض كانط للثورة أثار جدلًا واسـعًا، لأن ذلك قد يُفهم بوصـفه تبريرًا غير مباشر للسلطة السياسية القائمة.

ومع ذلك، تبقى فلســـفة كانط واحدة من أهم المحاولات الفكرية التي ســـعت إلى بناء أخلاق كونية وسياسة إنسانية قائمة على الحرية والكرامة والعقل، وهي المبادئ التي شكلت الأساس النظري لكثير من قيم الحداثة المعاصرة.

الخاتمة:

من خلال ما تم عرضـــه في المقاربات الكانطية الســـابقة، والتي أبرزت مفهوم الكونية في علاقته بالحرية والأخلاق والدين، إضـــافة إلى القواعد الأخلاقية الثلاث، يمكن القول إن إيمانويل كانط يمثل أحد أبرز الفلاسـفة الذين بلوروا فكرة الكونية الفلسـفية، بل يمكن اعتباره من أكثر المفكرين الذين دافعوا عن كونية العقل وأسّسوا لها نظريًا بشكل صارم.

فالتصور الكانطي للحداثة، كما يظهر خصوصًا في نصوصه المتعلقة بالتنوير، لا يحصر العقلانية في ثقافة أو شعب بعينه، بل يجعل منها مشروعًا إنسانيًا عامًا موجّهًا إلى البشرية جمعاء، باعتبارها تنتمي إلى الأرض لا إلى هوية جغرافية أو ثقافية محددة. ومن ثم فإن

الحداثة عند كانط ليست ملكًا حضاريًا خاصًا، بل مشروع كوني يتجاوز الحدود الضيقة للانتماءات التقليدية.

كما يتضح أن كانط لا يمنح التاريخ أو التقاليد أو الماضي قيمة تأسيسية مطلقة، بل ينظر إليها بوصفها مجالات مشروطة لا يمكن أن تؤسس معيارًا كونيًا للمعرفة أو الأخلاق. وفي هذا السياق يقدّم العقل والحرية بوصفهما الأساس الوحيد الممكن لبناء القيم الإنسانية. لذلك يراهن كانط على الكونية في مواجهة الهويات المغلقة، وعلى المدنية في مقابل القوميات الضيقة، وعلى العقل بوصفه مرجعًا أعلى للقيم بدل المرجعيات اللاهوتية أو الميتافيزيقية.

ومن هنا يتجه المشروع الكانطي إلى إعادة توجيه التفكير الفلسفي من مركزية التاريخ إلى أفق الجغرافيا الإنسانية الكونية، ومن سلطة السرديات التقليدية إلى سلطة النقد العقلي، بما يجعل الفلسفة الكانطية فلسفة تقوم على التحليل والنقد بدل الادعاءات الميتافيزيقية الشاملة، وهو ما يشكل أحد أبرز ملامح الحداثة الفلسفية عنده.

هوامش البحث:

- بنشيخة، المسكيني، أ. الز .(2015) .كانط والحداثة الدينية (ط1). المركز الثقافي العربي، مكتبة التنوير.
- بلكفيف، س .(2011) .عمانوئيل كانط فيلسوف الكونية (ط1). منشورات الاختلاف.
- ديورانت، و .(1988) .قصة الفلسفة (ف. المشعشع، مترجم، ط6). مكتبة المعارف.
- رايت، و. ك .(2010) .تاريخ الفلسفة الحديثة (م. س. أحمد، مترجم، ط1). دار التنوير.
- سبيلا، م .(2007) .في الشرط الفلسفي المعاصر (ط1). منشورات أفريقيا الشرق.
- سكيربك، غ.، &غليجي، ن .(2012) .تاريخ الفكر الغربي من اليونان القديمة إلى القرن العشرين (ح. ح. إسماعيل، مترجم، ط1). مركز دراسات الوحدة العربية.
- طرابيشي، ج .(1987) .معجم الفلاسفة (ط1). دار الطليعة.

- عبد الرحيم العلوي، م. (مترجم) .(2007) .فلسفة كانط السياسية: الفكر السياسي في حقلي الفلسفة النظرية وفلسفة الأخلاق لـ ع. المحمودي (ط1). دار الهادي.
- كانط، إ .(1952) .مشـــروع للســـلام الدائم (ع. أمين، مترجم، ط1). مكتبة الأنجلو المصرية.
- كانط، إ .(1965) .تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق (ع. الغفار مكاوي، مترجم، ط1). الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- كانط، إ .(1966) .نقد العقل العملي (أ. الشيباني، مترجم). دار اليقظة العربية.
- كانط، إ .(2012) .الدين في حدود العقل المجرد (ف. المســـكيني، مترجم، ط1). جداول للنشر والتوزيع.
- كوبلســـتون، ف .(2010) .تاريخ الفلســـفة: الفلســـفة الحديثة (المجلد الســـادس) (ح. الشاروني &م. س. أحمد، مترجمان، ط1). المركز القومي للترجمة.
- كرم، ي .(2012) .العقل والوجود (ط1). مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.
- خليفة، ف. ح .(2001) .الدين والســـلام عند كانط (ط1). مصـــر العربية للنشـــر والتوزيع.
- المزوغي، م .(2007) .كانط: الدين في حدود العقل أو التنوير الناقص (ط1). دار الساقي.
- وود، أ .(2014) .كانط فيلسوف النقد (ع. الفتاح بدوي، مترجم، ط1). المركز القومي للترجمة.